**المحاضرة 3**

**مدرسة الثقافة والدين:**

ازدهرت هذه المدرسة ازدهارا كبيرا في فرنسا بعد الحرب العالمية الثانية، وممثلا هذا التيار هما موريس لينهارت Maurice Leenhardt ( 1878- 1954)م وهو قس أمضى حياته في كاليدونيا الجديدة، ومارسيل عريول Marcel Griaule ( 1898- 1956)م. وهو أستاذ جامعي مستفرق. وقد توجها هذان الممثلان الرئيسيان لهذه المدرسة توجها مختلفا عن التراث الاجتماعي الذي خلفه دوركايم، بل حتى عن ذاك الذي خلفه موس.

لقد أعاد هذان الباحثان الاعتبار للثقافات المغايرة، بأن أبرزا آراءها في تكون الكون. وأساطيرها، وغنى رموزها، فكشفا النقاب عن أن لدى هذه الشعوب فكرا فلسفيا، بل فكرا ميتافيزيقيا.

والاهتمام الذي أبدياه حيال الدين، بما هو عامل من عوامل تفسير العقلية، والشخصية، بل حتى التنظيم المجتمعي، يجعلهما أقرب إلى التيار الثقافي منهما إلى اجتماعية المدرسة الفرنسية. هذان الممثلان يرفضان فكرة ليفي برول عن العقلية ما قبل المنطقية عند هذه الشعوب التي قد يكون فكرها عقليا، إنما داخل نظام فلسفي وديني مختلف.

على خلاف ليفي -ستروس البنيوي أكد لينهارت وغريول أن على الأنتروبولوجي أن يقتصر على دراسة المعيوش أو على دراسة تصورات المجتمع في حين أن ليفي- ستروس أراد دائما أن يتخطى الواقع المبسط على نحو ما تنعكس تركيبته في أذهان صانعيه، وأن يعمد هو بنفسه إلى بناء تأويله الخاص لهذا الواقع انطلاقا من موضوع الدراسة[[1]](#footnote-2).

مارسيل غريول Marcel Griaule ( 1898- 1956) لقد كان فكر الدوغون بالنسبة لغريول عبارة عن التعاليم التي استقاها من صلته بعقلائهم وبالمؤتمنين على تراثهم الشفهي. فالأنتروبولوجي ليس له إلا أن ينقل التعاليم وأن يتوارى خلفها. وخير برهان على ذلك هو طريقته التي كتب بها كتابه الرئيس إله الماء والذي كان عبارة عن مقابلة طويلة أجراها مع أحد المخبرين الطاعنين بالسن (1948). فقد روى له هذا المخبر طيلة ثلاثة وثلاثين يوما الأسطورة الأولانية التي تؤمن بها القبيلة والتي تفسر نشأة تقنياتها ( كور الحدادة، الحياكة) كما تفسر طقوسها، فضلا عن مقولة الشخص بالذات، فكانت عبارة عن موسوعة فلسفية تحتوي على فكر الدوغون الديني الذي يرى تعبيره في الحياة اليومية من خلال عدد من الرموز التي تتخذ شكل الرسوم أو المنحوتات. والواقع أن حيز الرمزية هذا حيز واسع جدا يتجلى في كل أوجه الحياة المجتمعية، ابتداء من المعتقدات والطقوس والأساطير، وصولا إلى الفن والتقنيات واللغة.

**تكون الكون والرمزية**: يروي كتاب غريول وقائع خلق العالم كما اكتشفها الباحث من كلام مخبره. ففي البدء كان هناك إله خالق، صار الآن بعيدا، اسمه أمّا، خلق الشمس والقمر بناء على تقنية قريبة من تقنية صنع الفخار.

- ثم صنع الأرض، وبما هي موئل الخصب، إذ تتلقى ماء السماء، فهي ترمز إلى المرأة.

- لذلك أراد الإله أن يقترن بها، فحصل من جراء ذلك بلبلة وفوضى كبيرين. إذ أن الأرض شأنها شأن أية امرأة قبل الزواج لم تكن مختونة. فكان أن اعترضت مأرضة سبيل القران، والمأرضة ترمز هنا إلى البظر، فاضطر الإله إلى هدمها. كان ذلك كناية عن خرق أول للقاعدة، أدى إلى ولادة غير سوية، أي إلى ولادة ولد واحد بدلا من الولادة المثلى عند الدوغون وهي ولادة التوائم.

- بعد ذلك ولج الماء الذي هو المنى الإلهي، إلى باطن الأرض وأدى إلى ولادة كائنين اثنين نصف الواحد منهما بشر ونصفه الآخر حية، فكان الجنيان المسميان نوفو. ثم حل هذان الكائنان تدريجيا محل الإله الخالق واضطلعا بتسيير شؤون الكون.

- إن هذين النومو يرمزان إلى الثنائية، ثنائية نجدها عند الكائنات البشرية حتى في حال ولادة الولد الواحد. أي أن كل امرئ يملك نفسين، نفسا مذكرة، ونفسا مؤنثة. ولكن بما أن هذه الحالة الخنثوية تتنافى مع الحياة المجتمعية وتحول دون التناسل، فإن الختان يعيد لكل كائن ملء هويته الجنسية.

- ثم كان ظهور الإنسان على شاكلة الآباء الأولانيين الذين هبطوا إلى الأرض. وهم ثمانية. أربعة ذكور وأربعة إناث. والرقم ثمانية عند الدغون له قيمة رمزية. وقد عمد هؤلاء الآباء الثمانية إلى تقاسم الكون.

- ثم كان أن أنزل هؤلاء الآباء على الأرض التقنيات والكلام[[2]](#footnote-3).

وهكذا فأسطورة تكون الكون تتمتع عند هذه الشعوب بقوة حاسمة. إنها تفسر الرموز، والتنظيم المجتمعي، والتقنيات والفن، والمعتقدات. وبالتالي فكل شيء يوجد في الديني، وكل شيء يفسر بالديني أيضا. هكذا فإن الحركات اليومية التي يقوم بها الحداد مثلا تعيد على الصعيد الرمزي، إنتاج الأحداث التي ورد ذكرها في الأسطورة الأولانية. كما نجد في محترف الحدادة أن المطرقة ترمز إلى جنّي الماء، أي النومو الذكر، بينما يرمز السندان إلى النومو الأنثى. فعندما تنهال المطرقة على السندان، يقوم الحداد بتجسيد القران الأسطوري الذي حصل بين هذا الزوج.

وهكذا فلقد أراد غريول أن يذكر بفكرتين:

الأولى أن التحليل الدقيق للأسطوريات والكونيات، والفلسفات الإفريقية تنم عن وجود أنظمة متماسكة إلى حد كبير.

والثانية أن الانطلاق من هذه الفلسفة هو الذي يمكننا من وصف الواقع المجتمعي بحياته الخاصة، ويساعدنا على استخلاص تماسكه الشديد.

موريس لينهارت Maurice Leenhardt ( 1878- 1954)م ربما كان لينهارت من أوائل الانتروبولوجيين الميدانيين الفرنسيين إن لم يكن أولهم على الإطلاق. وقد تبين من كتابيه اللذين درس فيهما أوضاع الكانك في كاليدونيا الجديدة، أنه يتبّع نفس التوجه المنهجي الذي انتهجه غريول: دراسة التنظيم المجتمعي والاقتصادي ( أهالي، الأراضي العليا 1937) ثم دراسة المعتقدات والشخصية ( دوكومو 1947) كما أنه اتبع المقاربة نفسها التي تعاين الميلانيزي في حياته العميقة، فترى كيف ينظر إلى العالم وكيف يتعرف إلى نفسه من خلاله، ويسدد خطواته ويتميز فيه عن غيره.

بحث لينهارت في الأسطورة عما يقابلها، وفي معنى السلوكيات القديمة والجديدة التي لا تتفسر فقط عن طريق لعبة المؤسسات بل هي أقرب إلى التفسير من خلال الأشكال الأسطورية التي تحفل بها الحياة ومن خلال الأساطير التي تحدد تلك الأشكال، وفي هذه المقدمة التي استهل بها كتابه دوكومو يعرب عن إعجابه بليفي برول كما يعرب عن اهتمامه بدراسة العقليات رغم أنه خلافا لليفي برول لم يشكك يوما بطابعها المنطقي بل، على العكس، أعاد الاعتبار مثل غريول لتلك الثقافات التي كانت لا تزال تسمى بدائية. إن عقلية الشعوب التي درسها لينهارت تنطوي على جانب عقلي وجانب أسطوري، وقد يطغى واحدهما على الآخر. أمّا الكلام عن عقلية بدائية وعن عقلية حديثة فكلام مضلل لأنه لا ينطبق على أي واقع في العالم. أما الأسطورة فيعرفها لينهارت بأنها المؤسسة التي تتولى تكرارا الأفعال والأحداث الأولانية التي يعتبر تحديدها شرطا لاحلال التوازن المجتمعي. وتلاوتها ترسخ في أفئدة المؤمنين بها الأحداث الدينية الاستهلالية. وهكذا يتبين لنا الدور الحاسم والمتشابه الذي تقوم به الأسطوريات والكونيات في معظم الثقافات، الإفريقية منها والميلانيزية، فالأسطورة والرمز يشكلان والحالة هذه العناصر الرئيسية في هذا التيار البحثي[[3]](#footnote-4).

1. - Jucques Lombard, **introduction a l ‘ ethnologie**, Armond colin, Paris, 1998, P151- 152. [↑](#footnote-ref-2)
2. - Ibid, P 152. [↑](#footnote-ref-3)
3. - Ibid, p 154. [↑](#footnote-ref-4)